

مدخل حول بداية عمليات وطرق الدفن.

بيّنت العديد من التقارير إعتناء إنسان شمال إفريقيا بدفن موتاه منذ فترات ما قبل التاريخ، وقد بدأ هذا السلوك منذ العصر الحجري القديم الأوسط إفتراضا لبداية هذا المعتقد مع إنسان نياندرتال في فلسطين وأوروبا بما شملته من مكتشفات أثرية في هذا الموضوع، فهذا لا يعني بأن الإنسان في شمال إفريقيا كان ما يزال يهمل جثث موتاه في الطبيعة كما كان في الحقب السابقة، بل النقص الكبير في الأبحاث الأثرية لعصور ما قبل التاريخ، كان ومازال السبب الرئيسي في عدم العثور على البقايا الجنائزية لإنسان هذه الفترة في شمال إفريقيا.

فأقدم المعتقدات الجنائزية المعثور عليها عندنا ترجع إلى فترة العصر الحجري القديم المتأخر Epipaléolithique في كل من موقعي أفالو ببجاية وتافوغالت بالمغرب الأقصى. فالإنسان المعروف بالأيبيري المغربي Ibero-Maurisien الساكن قرب المغارات أو على مداخلها، كان يدفن موتاه داخل المغاور وبوجه التحديد على حواف جدرانها الداخلية.

ونفس المنهج اقتدى به سكّان العصر الحجري الحديث القاطنين على مشارف المغارات، ومع نهاية هذا العصر إبتعدت القبائل والعشائر عن المغارات الطبيعية وعن إستعمالها كمأوى للأموات، فأُتخذت كأماكن مقدّسة خاصّة للعبادات، فبقي هذا السلوك ممارسا إلى غاية الفترة الرومانية حيث هناك عدّة مغارات في مقاطعة نوميديا خصّصت لتبجيل المعبودات المحلية، كالمعبود بكاكس بغار الجماعة في جبل الطاية، كما نجد هذا السلوك مازال متنامي في بعض المناطق عندنا، حيث تعتبر المغارات كمأوى للنيام السبع وخاصة منها تلك المغارات الموجودة قرب المواقع الأثرية كمغارة سبع رقود الطبيعية الواقعة في جرف ومنحدرات تعلوها مصاطب وبازينات موقع إيشوقان، فيرى قزال بأن المعتقدات داخل المغارات هو سلوك قديم، ترجع أصوله إلى ما قبل التاريخ¹.

فربّما لهذا الغرض المقدس للمغارات والذي بدأ مع نهاية العصر النيوليتي، توقّفت عمليّات الدفن بداخلها إلّا في بعض الحالات الفردية والمعزولة. لكن قبل فترة النيوليتي بقليل، بدأت المعالم الجنائزية في الوضوح خاصّة في موقعي كولمناتا² وفي الرمادية الساحلية المقابلة لجزيرة رشقون³ أين عثر على بقايا بشرية مغطّاة بطبقة حجرية داخل طبقات ترابية رمادية .

¹- Gsell S., Histoire ancienne de l'Afrique du nord. T.I. paris 1921. p. 256.

²- Cadenat p, Nouvelle fouille de columnata.Libyca.A.P.E. T. III.1955.p.279.

³- Gsell S., op. cit .pp 271-272.

أما الانتشار الواسع للمدافن في مجموعات محدودة العدد أو داخل مقابر حقيقية، فيصل ذروته مع نشأة مختلف التنظيمات الاجتماعية للقبائل البربرية القديمة كالجيتول في المناطق الجنوبية، النتابوت في منطقة قالمة، الموزولام في منطقة سوق أهراس وضواحيها الجنوبية، وتبسّة وجزء من القطر التونسي، والماسيل في منطقة قسنطينة والمزيكيري بضواحي القالة. أين شهدت هذه المناطق عدداً جديداً من أنواع المعالم الجنائزية الميغاليثية وشبه الميغاليثية ذات الأنماط المتنوعة كالتلال الجنائزية، البازينات، القبور القلاعية، المصاطب والأضرحة.